الفصل الرابع

الشاعر

١

الديوان الأول بأجزائه الأربعة

مر بنا فى حديثنا عن العقاد الناقد أنه أرسى مع صاحبيه : شكرى والمازنى قواعد مدرسة جديدة فى شعرنا الحديث وأنهما اتخذا منه إماماً يناهض مدرسة الإحياء والبعث ويضع بقوة مقاييس مدرستهم وأصولها وطوابعها الحاسمة . ولم تكد تباشير العقد الثالث من هذا القرن تتجلى فى الأفق حتى نشبت معركة عنيفة بين شكرى والمازنى كانت قد سبقتها نذرٌ صاخبة . ولم تلبث المعركة أن قضت على حياتهما الشعرية ، فانصرف المازنى إلى الصحافة والنثر ، وهجر شكرى الشعر إلا قليلا ، أما العقاد فظل علماً لامعاً فيه يخرج الديوان تلو الديوان وظلت تتلاحق أمواج نقده ودراساته الأدبية صادعة حجب التقليد دافعة بشعرنا إلى المجرى الجديد الذى تدفقت فيه مياه الحركات التجديدية لأجيالنا الشعرية التالية .

وكان العقاد قد أخرج حتى سنة ١٩٢١ ثلاثة دواوين ، هى يقظة الصباح ووهج الظهيرة وأشباح الأصيل ، فضم إليها ديواناً رابعاً هو أشجان الليل ، ونشرها مجتمعة فى سنة ١٩٢٨ باسم « ديوان العقاد : أربعة أجزاء

فى مجلد واحد » . ولا نكاد نلم بالجزء الأول الذى نشره فى سنة ١٩١٦ حتى نرى أنفسنا بإزاء شعر من نمط غير مألوف فى العربية ؛ شعر هو ثمرة لقاح الآداب العالمية والعربية فى النفس المصرية الشاعرة الصادقة الحس المرهفة الشعور ، وصاحبه يعلن ذلك إعلاناً واضحاً ، إذ يسلك بين منظوماته ثلاث منظومات معربة عن شكسبير ؛ هى « فينوس على جثة أدونيس » و« العرض » و « لاطلع الصباح » ومنظومة عن « بيرنز » هى « الوداع » ومنظومة عن وليام كوبر هى « الوردة » وبجانب ذلك إشارات إلى بعض الأساطير اليونانية . ويمد بصره إلى الآداب الفارسية ، فيتحدث عن شهر زاد وعن إلهى الخير والشر « أورمزد وأهرمن » ممثلا للأول بالشمس وللثانى بالغمام . ونجده يعارض ابن الرومى فى نونيته التى مدح بها أبا الصقر بقصيدة بديعة لم يجعل موضوعها المدح وإنما جعله الحب الأول ، ويعارض أيضاً ابن الفارض بقصيدة فى الخمر الإلهية .

نحن إذن بإزاء شعر تتدافع فيه تيارات الآداب العالمية عربية وغير عربية ، وهى لا تتدافع هذا التدافع الظاهر الملموس فى بعض المعارضات وبعض الإشارات والترجمات فحسب ، بل هى تتدافع فى دخائل الشاعر وتتجاوب أصداؤها تجاوباً نفذ منه إلى الصورة السوية لشعرنا الحديث . صورة تخرج به من نطاقه التقليدى الضيق الذى كان يرضى به طائفة محدودة من الأمة يعكف على تملقها مشبعاً لأذواقها وملتمساً مواقع أهوائها إلى نطاق الحياة الفسيح الذى يأخذ منه كل فرد فى الأمة بحظ ونصيب ، وهو نطاق ينساب رحيقه الإلهى الخالد فى روح

الشاعر وعقله . وسرعان ما ترفع الأسدال بينه وبين خفايا الحياة فى جميع مظاهرها الكونية والإنسانية . فإذا هو ترجمان صادق لها ، ترجمان يذيع إشعاعاتها فى نفسه بكل ما يلابسها من مشاعر ومن تأملات ، وإلى ذلك يشير العقاد إذ يقول :

الشعر من نفس الرحمن مقتبس ... والشاعر الـذ بين الناس رحمن
والشعر ألسنة تفضى الحياة بها ... إلى الحياة بما يطويه كتمان
لولا القريض لكانت وهى فاتنة ... خرساء ليس لها بالقول تبيان
ما دام فى الكون ركن للحياة يرى ... ففى صحائفه للشعر ديوان

فالشعر نفثة من نفثات الروح الإلهية ، نفثة تفتح للشاعر مغاليق النفس الإنسانية ، كى يحولها إلى أناشيد فياضة بالأحاسيس والمشاعر ، أناشيد يتلقاها عنه الناس ، وكأنما فصلت من نفوسهم ، أو قل كأنما الحياة تخاطب الحياة أو بعبارة أدق كأنما نطق الشاعر لا عن نفس واحدة ، وإنما عن جميع النفوس ، فهى تقرؤه لتجد حياتها ، بل إنه ليوسع لها آفاق تلك الحياة بما يعرض عليها من مكنوناتها وبواعثها ودوافعها العميقة التى تعبر عن أسرار الوجود . وقد صور العقاد هذا المعنى تصويراً دقيقاً فى مقدمته للجزء الأول إذ يقول : « الشعر يعمق الحياة ، فيجعل الساعة من العمر ساعات ، عش ساعة مفتوح النفس لمؤثرات الكون ، التى يعرض عنها سواك ، ممتزجة طويتك بطويته الكبيرة تكن قد عشت ما فى وسع الإنسان أن يعيش وملأت حقيبتك من أجود صنف

من الوقت » . والشعر بذلك ليس لغواً ولا تسلية فراغ ، وإنما هو الطبيعة الإنسانية موصولة بالكون وجلال حقائقه وما يحسه الإنسان من ألم وحزن وحب وبغض ورحمة وعطف وفزع ورهبة وخير وشر وجمال وقبح ، فكل ذلك يعكسه الشعر ، ويطبع فى عقولنا وقلوبنا منه صوراً مجنحة نتملى فيها مشاعرنا إزاء الإنسان والوجود .

والموضوعان الأساسيان فى الجزء الأول من الديوان هما الطبيعة والحب ، أو قل هما الكون والإنسان ، وسيظلان الموضوعين الأساسيين فى كل جزء تال . ونرى فى هذا الجزء كل شىء فى الطبيعة يشوق العقاد ، بل قل يفتنه ويحرك خوالج قلبه ، بل لكأن قلبه ينبض على نبض قلوب وحداتها وعناصرها ، فهى ليست دُمى صامتة ، بل هى أرواح خافقة فى الهواء سابحة فى الماء هامسة فى الزهور والأغصان ، وهى تارة وجوه عرائس تفيض بالحسن والجمال وتارة وجوه مردَة تفيض بالغضب والسطوة والنضال . وتدلعَ أصداؤها فى طويته سيلا متدفقاً من الأحاسيس يتخلله بأشعة من فكره وتأملاته ، مخترقاً بها من حين إلى حين أعماق الكون الذى لا نهاية له من حوله ، ومن خير ما يصور ذلك عنده وصف ليلة مقمرة من ليالى الإسكندرية وفيها يقول :

شف لطفاً عما وراء السماء ... نور بدر مفضضٍ اللألاء
رق سجف السماء حتى كأن الـ ... ـعين تتلو هناك سر الفضاء
وسرى الطرف فى الفضاء فما يثـ ... ـنيه ثان عن خوض ذاك الفضاء
وربا النور كالعباب فما فى الـ ... ـكون غير الظلال من ظلماء

في سكون كأنه نفس الحا لم أو خفق طائر في الهواء

وكأن أشعة القمر نافذة لعينيه يرى من خلالها الأبدية التي تنشق منها في غيبوبة كغيبوبة الصوفية . وتحرك هذه الأشعة ببهائها وجلالها في نفسه كثيراً من المشاعر الحية ، يذيعها في غير قصيدة من قصائده ؛ وللبحر العاتي بأمواجه ورياحه وشطآنه نفسُ المسارب والمشاعر ، وهو غالباً يقرنه بالليالي المقمرة على نحو قصيدة القطعة السالفة ، ويظهر أنه كان يحس أنساً شديداً في القمر كما كان يحس رعباً شديداً في الظلام ، وعبثاً تؤنسه من ورائه السماء بنجومها المتوامضة في الليل البهيم ، يقول :

يا للسماء البرْزة المحجوبه أعجب ما أبصرت من أعجوبه
تروعنا أنجمها المشبوبه تهولنا قبتها المضروبه
كأنها الهاوية المقلوبه كأنها الجمجمة المنخوبه
تهمس فيها الذكر المحبوبه

ففراغ السماء من نور القمر مظلم رهيب رهبة الهاوية السحيقة التي تدفع القلب إلى الحلقوم ، بل رهبة الجمجمة الفارغة التي تهمس على الرغم من خوائها الموحش المخيف بذكريات الحياة . ويلهمه النيل غير قصيدة ، ونراه مولعاً بتصوير الأزهار وفصول السنة ، ومن طريف تصوير إحساسه إزاء الربيع والخريف قوله :

ضحكُ الطبيعة في الربيع كأنه ضحك الغريرة في عناق خليع
فإذا تبسم في الخريف جبينها أبصرت نظرة ريبة وخشوع

كالغادة الحسناء يغرب حسنها ... أثناء شيب فى الشباب سريع

وله فى الصحراء قصيدة رائعة صور فيها جدبها وعريها وصمتها وجحيم قيظها وترامى فلواتها . ويتعاطف مع عالم الطير تعاطف الحى مع الحى ، تعاطفاً يمتزج بالحنان على نحو ما نرى فى قصيدته « الكروان » وهى من فرائد قصائده ، ولا تقل عنها روعة وإبداعاً قصيدته « العقاب الهرم » وهى تتوالى على هذا النمط :

يهمّ ويعييه النهوض فيجثمُ ... ويعزم إلا ريشه ليس يعزم
لقد رنق الصرصور وهو على الثرى ... مكب وقد صاح القطا وهو أبكم
يلملم حدباء القدامى كأنها ... أضالع فى أرماسها تتهشم
ويثقله حمل الجناحين بعدما ... أقلاه وهو الكاسر المتقحم
جناحين لو طارا لنصت قدومت ... شماريخ رضوى واستقل يلملم
ويلحظ أقطار السماء كأنه ... رجيم على عهد السموات يندم
ويغمض أحياناً فهل أبصر الردى ... مقضا عليه أم بماضيه يحلم
إذا أدفأته الشمس اغفى وربما ... توهمها صيداً له وهو هيثم
لعينيك يا شيخ الطيور مهابة ... يفر بغاث الطير عنها ويهزم
وما عجزت عنك العداة وإنما ... لكل شباب هيبة حين يهرم

وواضح ما تزخر به القطعة من قوة فى التصوير المادى والنفسى ، فقد هرم العقاب وأصبح لا يستطيع نهوضاً حتى ولا نهوض الصرصور ولا ضعاف الطير مثل القطا ، والتصق جناحاه بصدره حتى لكأن

ريشاتهما الطويلة قد أصبحت من عظام صدره ، بل لكأنما أصبح جناحاه حجرين من شماريخ جبلى رضوى ويلملم . وإنه ليأسى على نفسه ، وكأنه شيطان رجيم طرد من أقطار السماء . وإنه ليغفو تحت حرارة الشمس ، وكانت تتراءى له قديماً ، وهو هيثم أو عقاب صغير ، صيداً ويهم أن يفترسها ، فيا للمصير . وهو تصوير ملىء بالعطف والشفقة على هذا الشيخ الذى حطمته السنون ، ويعزيه العقاد ، فهابته لا تزال تحفه ؛ ولا تزال بغاث الطير ترهب بطشه وسطوته .

وإذا كان العقاد أجرى فى شعر الطبيعة التعاطف والمناجاة ووصله فى بعض جوانبه بالكون ممتزجاً به فإنه دفع شعر الحب إلى التجرد عن المادة إلا قليلا ، فلم يعد الحب عنده وصف الثغور والخدود والعيون والجياد والقدود والسيقان والأرداف ، بل أصبح وصف الروح والشمائل ، وكأنه أحس فى الحديث عن الجسد تعبيراً مباشراً عن الغريزة الحيوانية النوعية وهو تعبير ينبغى أن يرتفع عنه الشاعر إلى وصف مشاعره تلقاء المرأة وصفاً يترقرق فيه العطف والحنان . وكان جزءاً من دعوة مدرسته أن الشعر ينبغى أن يكون تعبير النفس لا تعبير الحس ، وتعانق ذلك فى ضميره بإيمانه أن الشعر ينبغى أن يدفع الأمة نحو الحياة المهذبة التى تعلو فيها نزعات الروح على نزعات الجسد ونزغاته ، ومن قوله فى بعض غزله :

أوتيت من حسن الشمائل نعمةً   والحسن فى الدنيا من الآفات
والحسن يعشقه الكريم وربما   أضرى لئيم النفس بالنزغات

هلا علمت وأنت زهر مونق أن الزهور فرائس الحشرات
لا يخدعوك بلين من قولهم فاللين بعض حبائل الحيات
كونت أنساً للضمير وبهجة وعلوت شأو مطامع الشهوات

وفى هذا الجزء الأول مقطوعات غزلية كثيرة ؛ ولكن ينبغى أن نعرف أن كل قطعة تعبر عن حالة نفسية مستقلة . وهو ما نادى به مراراً فى نقده من أن الشعر ينبغى أن ينفك فى كل موضوع عن نمطه القديم فيه ؛ بحيث يصبح تعبيراً صادقاً عن إحساس صاحبه ؛ لا نمطاً واحداً مكرراً ، حتى ولا عند الشاعر الواحد فإنه ينبغى أن يكون لكل قطعة أو قصيدة عنده حالتها النفسية التى تنفرد بها . ونرى قلبه يكتظ بالعواطف والمشاعر إزاء الأطفال ، وقد أبدع فى مقطوعتين صور فى أولاهما غيرة طفلة ورثى فى الثانية طفلة ذَوَتْ قبل الأوان ولا يزال عطرها الفواح يملأ عليه الأرجاء .

ونراه يقف خاشعاً، وقد ملأه الجلال ، أمام معبد أنس الوجود وتماثيله الناطقة التى تعكس فى مخيلته ظلال الماضى وأمجاده الغابرة وما كان يقام من صلوات فى هذا المعبد لأوزوريس إله النور ، وينحدر على درج الزمان ملتفتاً إلى بلدته التى تقيم على بعد خطوات وقد أحاطت بها أضواء الشمس المتوهجة ، بل المتقدة ، فهم بنو الشمس نفثت بضرامها الحياة فيهم بل فى كل أركان الوادى وشعابه ، وما أركانه وشعابه إلا مهد كبير نَدْرُج فيه كما درجت عروش الأسلاف التى لم يبق منها إلا أثر بعد عين :

درجنا بحيث الدارجون عروشهم قيام تناجى فى سكينتها الدهرا
تلوح على تلك الرمال كأنها خطى الزمن الوثاب تاركة إثرا

ويزور المعبد ليلا وقد خلع القمر عليه غلالته ، فيسأله وقد صحبه قديماً ما شأنه وما مصيره . ويهوله قدمه ومغالبته للزمن حتى كأنما لقى فيه حتفه ، وتأخذه الروعة حين يشهد تماثيله ، وكأنها شخوص حقيقية ، ويعجب للظلام الحالك داخل هذا المعبد الذى شيد لأوزيريس وعبادة النور والضحى ، ويبتهل إليه أن يجرى فيه الضياء . ويعود إلى نفسه ، فالآلهة من شأنها أن يطوف بها ظلام يستر الفكر ويحجبه ، وقد تتخذ الضياء حجاباً لها ، وقد يكون العيب فى العين لا فى الضوء والشمس يقول :

قضى نحبه فيه الزمان الذى مضى فكان له رسماً وكان له قبرا
وأشهدنا منه شخوصاً كأنها مساحير ترجوكاهناً يبطل السحرا
صلابٌ على مس اليدين ، ومسها على العين ما أندى الممس وما أطرى
فيا وجه أوزيريس هلا أضأتها وأنت تضىء السهل والجبل الوعرا
تراكم فيها يعقب الليل مثله ظلام الليالى لا صباح ولا فجرا
ولست ضنيناً بالضياء وإنما لكل إله ظلمة تحجب الفكرا
ورب إله بالضياء محجب وشمس سماء عين ناظرها حسرى

ووراء ما قدمنا فى هذا الجزء الأول من أجزاء الديوان قصائد ومقطوعات تفيض باللوعة لحظوظ الشعراء من أبناء الشعب الذين لم يكن يسندهم فى هذا العصر جاه ولا ثراء ، إذ كانوا يتصورون جوعاً

ولا مشفق ولا مغيث ، وإنه ليمد اللوعة لأبناء الشعب كله الذين كان يفرض عليهم العناء والكدح ليتمتع القصر وحواشيه والإقطاعيون بأسباب الترف والنعيم ، مما جعله يغضب لنفسه وأمته مراراً فى مثل قوله :

لا تحسبوا أمة يعلو أعاظمها إذا الفقير طلابُ القوت أعياه
أيرزح القوت فى أرض بطالبه ويبلغ المجد فيها من توخاه ؟
دفنتم المال آكاما فهل نبتت فى باطن الأرض أوزادتْ خباياه؟
إن العزيز ليأبى الذل يلمحه كالإثم يأبى العفيفُ الذيل رؤياه

وتجرى فى أشعار هذا الجزء وما تلاه من أجزاء أسرابٌ من القنوط يلتقى فيها العقاد بالروح المصرية حينئذ وما كان يطغى عليها من يأس وضيق وقلق إزاء الاحتلال الجاثم على صدر البلاد ، وينفذ كل ذلك إلى نفسه كما تنفذ السهام ، ولعله من أجل ذلك أكثر من حديثه عن الموت ، ومن قوله فى بعض هذا الحديث :

إذا شيعونى يوم تقضى منيتى وقالوا أراح الله ذاك المعذبا
فلا تحملونى صامتين إلى الثرى فإنى أخاف اللحد أن يتهيبا
وغنوا فإن الموت كأس شهية وما زال يحلو أن يغنى ويشربا

وحزنُ العقاد وقنوطه لا ينهك نفسه ، بل تظل مقاومته صامدة صمود الجبال الشامخة ، ويظل معتزا بإنسانيته وكرامته وعزته ووطنه ومصريته ، وتلمع فى ثنايا ذلك أقواس الأمل وتتردد الابتسامة على شفتيه ، حتى

ليشدو ببعض أشعار مرحة ، وحتى ليتغنى بأخرى فكهة على شاكلة قصيدته « فى ثقيل » .

وواضح أن الجزء الأول من الديوان يعبر عن صورة جديدة لشعرنا الحديث ، صورة تصله بالآداب العربية وغير العربية . وبذلك تفتحت جوانبه لما تسرب فى بواطنها من أصداء الحياة الإنسانية . وهى صورة معنوية لا تعنى بالحس ، وإنما تعنى بسرائر النفس ووقع عناصر الطبيعة والكون فيها وَقعاً ملؤه التعاطف والامتزاج مع الروح المستكنة للوجود . وتمتد هذه الصورة إلى الحب ، فلا توصف فيه المرأة بثوبها الجسدى الجميل ، وإنما توصف بروحها وشمائلها وما يتقاسمه المحب معها من عواطف ومشاعر . وهى صورة مصرية تتضح فيها الروح القومية واعتزازنا بأمجادنا الماضية وما كنا نخوضه من غمرة البؤس فى زمن الاحتلال مع الثقة فى غد باسم وما كان يطمح إليه الشعب من حقوق الانتفاع بجهده وأن لا يتاح النعيم لفريق قليل من الناس بينما يرزح جمهوره تحت أثقال الفقر والجوع والعرى . وهى صورة إنسانية لأنها تعبر تعبيراً صادقاً عن الإنسان ، ولأنها تزخر بعواطف الرحمة والمواساة لا قبل الآدميين وحدهم بل أيضاً قبل الطير وقبل الحيوان على نحو ما يلقانا فى قصيدته « أسبوع فلورة » .

وإنما أطلنا فى الحديث عن الجزء الأول من أجزاء الديوان ، لأن الأوتار التى شدها العقاد فيه إلى قيثارته ظلت هى نفسها التى تتساقط منها أشعاره فى الأجزاء الثلاثة التالية مع تعديلات بسيطة فى الجزء الرابع ، على نحو

ما سنرى عما قليل . وهو يستهل الجزء الثانى بقصيدة فى « هيكل إدفو » متمثلا فى ظلامه ظلام الغيب المجهول وفى تماثيله الخالدة معنى الكون الأبدى . وبينما هو يسبح فى جو من ذكريات التاريخ ، إذا هو يذكر مصر المحتلة وما اختزنته على مدى الدهر من طاقات ومن رجال ، فيستثير حمية الشباب للنضال واثقاً فى الاستقلال وتحقيق الآمال ، يقول :

ملك الفراعنة الحماة وخلفوا ... للملك أعلاما بمصر طوالا
تتقوض الأوطان وهى كدأبها ... من عهد نوح تربة ورجالا
فتجنبوا فيها القنوط وأجزلوا ... قسط البنين معارفاً وخصالا
وستستقل فلا تقولوا إنها ... صمد الهوان بها فلا استقلالا

ونمضى معه نستمع أنغامه فى الحب والطبيعة مكثراً من تأملاته فى الكون والحياة وعلاقات الأفراد فى بيئته . ويعود إلى تاريخنا القديم ، فيرسم منه صورة حية لرمسيس وانتصاراته المدوية

وتتسع به التأملات فى الجزء الثالث ، فيحدثنا عن الموسيقى وما يقترن بها فى ضمائرها العميقة من وحى البداهة ولغة الحياة ، ويحدثنا أيضا عن الحياة وما تقيد به الإنسان من قيود الغرائز والأهواء ، وعن الجسد وأنه لا يغنى شيئاً إذا مات صاحبه مهما اتخذ له من أسباب الخلود . ويطوف به هذا المعنى فى قصيدته « هيكل الكرنك » مصوراً ما بين الدولم والفناء من حرب حامية الوطيس . ونراه يرثى محمد فريد خليفة مصطفى كامل

رثاء حارا مطيلا التفكير فى الدنيا وأشواكها الأبدية وسرابها السرمدى الذى يطوى الناس فى لجحه . ويتجه إلى الشباب المأمول يستنهض همته للثورة على الطغاة الذين يستعبدونه ، بمثل قوله :

شبان مصر وما دعوت سوى الأولى   يحيا بهم أملُ البلاد ويورق
أيعيش فى لهو الرفاهة من له   من كل صعلوك إله مطلق
لكم الغد المنشود فاعتصموا به   فإذا استقر لكم أساسٌ فارتقوا

وأمّ قصائد هذا الديوان ، بل أم قصائد العقاد جميعها قصيدته « ترجمة شيطان » التى تمتد فى نسق فريد إلى أكثر من ثلاثمائة بيت صور فيها حياة شيطان ، وجعلها تمر بثلاث مراحل ، أما المرحلة الأولى فقد صاغه الله فيها ، ليرمى به الأرض ويزرع فيها بذور الشر . ونحس هنا تعاطف العقاد مع هذا الشيطان الذى كتب عليه الشر فى ألواح القدر وقدر له السوء قبل الوجود ، ويقول إنها سنة اقتدى بها الطغاة الجبارون فى الأمم ، فمن راموا به نكالا شبهوه بشيطان قذر . وكأنما العقاد يريد أن يتخذ من قصة هذا الشيطان وإلهه رمزاً لقصته هو وأمثاله من الفنانين الأحرار مع الطغاة المستبدين وما يحاولون من إذلال كبريائهم . وينزل الشيطان أرض الزنوج « صفر الراحتين خاوى الزاد » ويسخر من قسمته ، ويولى وجهه نحو بحر الروم أو بحر العجم حيث بلاد الحضارة والعيش الناعم ، وينصب للناس شركاً يطلق عليه اسم الحق ، يفتتنون به ،

ويختصمون من حوله ، ويصبح هذا الحق سلاحاً لكل صور العدوان وكل صور الشر والنكر . ويأنف الشيطان أخيراً من مهنته ومن فتنته قوماً عدموا الرشد ، ويكفر برسالته ، ويعد الله منه ذلك ندماً فيدخله جنته . وهنا تبدأ المرحلة الثانية فى حياة الشيطان ، ويصف العقاد الجنة وصفاً رائعاً فى عشر مقطوعات قصيرة ، يصور فى ثناياها حياة الشيطان الجديدة وما حوله من ملائكة يسبحون الله فى علاه « وهو يزداد على التسبيح قبضاً » وضيقاً بالجنة وملائكتها المقربين . وراعهم ما رأوا على وجهه من سخط وسأم ، فتثاءبوا تثاؤب الأطفال غلب عليهم الملال ، وسألوا الشيطان لطهارتهم أهذا الذى يرى على وجهه من السخط والعبوس هو الذى يرى على وجوه أصحاب الجحيم ، وقال بعضهم إننا للفائزون ، وصرخ الشيطان يقول إننا جميعاً شقيون ، وذعر الملائكة كأنهم الجيش فى هول الفرار أو الطير راعتها الأمطار ، وكأنه ساءهم أن لا يحسدوا على ما هم فيه من نعيم مقيم وأن ينكر عليهم الشيطان سعادتهم الدائمة إنكاراً كأنه سلبها به منهم ، بل لقد عرفوا منه الغضب . ولطف الله به فلم يرجموه ، وأوحى الله الوحى فى جنته فإذا هى أمن وسكون . ويتجلى الله فرداً فى علاه :

وبدا الشيطان معروفاً ترى	كبرياء الكفر فى وقفته
عالى الجبهة يأبى القهقرى	وتؤج النار من نظرته

وأعلن الثورة على ربه ، وكأنما يتمثل العقاد ثورته وثورة كل فنان حر

على الطغيان والاستبداد . ويستصغر الشيطان الفردوس منزلا للخالدين ، ولا يزال يتحدى الله فى كبرياء وأنفه وشموخ ، عاصياً لا يطيق الإذعان . وهنا تبدأ المرحلة الثالثة من حياته ، إذ مسخه الله صخراً ، ويظل له طبعه ويظل له سحره فيما يصنع من تماثيل وأصنام ، وكأنما يتمثل العقاد فيه أخيراً سحر الفن الخالد . ويسمع إبليس قصته فيقول إنه ليس منا وإلا ما طاش فمه ، وهكذا :

باء بالسخط فلا شيعته رضيت عنه ولا أرضى العدى

والعقاد لا يصور فيه الفنان الحر من أمثاله أمام الطغاة الباغين فحسب ، بل يصور فيه أيضاً مصير الإنسان الحر الذى يزهد فى الفردوس من أجل حريته ، والذى يخط بيده قدره ومستقبله .

ونمضى إلى الجزء الرابع من أجزاء الديوان ، فنرى العاطفة الوطنية تتأجج نيرانها فى صدر العقاد ، وكان قد بدأ جهاده الوطنى السياسى العنيف ، وأخذت البشائر تدل على أن المحتل البغيض سيخفف من غلوائه ، والشعب يصيح بمطالبه يريد أن يلقى عن ظهره أعباء الظلم ، ويرسل العقاد على عدوه شواظاً من مقالاته وسهاماً مصمية من أشعاره ، لعل من أحدها وأشدها قصيدته « يومَ المعاد » التى نظمها عقب رجوع سعد زغلول من منفاه ، وفيها يقول :

ما يبتغ الشعب لا يدفعه مقتدرٌ من الطغاة ولا يمنعه مغتصب
فاطلب نصيبك شعبَ النيل واسْمُ له وانظر بعينيك ماذا يفعل الدأب

ما بين أن تطلبوا المجد المعد لكم   وأن تنالوه إلا العزم والطلب

ونراه حين توفى سعد ينظم قصيدة تاريخية طويلة يصور فيها أعماله . وهذا كله لحن جديد ليس له سابقة فى الدواوين السالفة : إذ لم يكن ينظم فى السياسيات والوطنيات إلا نادراً . وهذا هو معنى ما قلناه من أنه حدث تعديل فى نغمه الذى شدا به فى الجزء الرابع ، ولكن على كل حال تظل الألحان الأساسية التى عرضنا لها فى حديثنا عن الجزء الأول مسيطرة على جوه الفنى . وربما كان أهم شىء يضيفه هذا الجزء بجانب شعره الوطنى السياسى أنه يحمل فى تضاعيفه قصة حبه لسارة ولمن تسمى هنداً ، وقد مر فى حديثنا عن سارة تصويره لمرحلة الشك التى عاشها معيشة شديدة الضيق والقلق ، وفى ذلك يقول بإحدى قصائده :

يوم الظنون صدَعتُ فيك تجلدى   وحملت فيك الضيم مغلولَ اليد
وبكيت كالطفل الذليل أنا الذى   مالان فى صعب الحوادث مقودى
وغصصت بالماء الذى أعددته   للرى فى قفر الحياة المجهد
لاقيت أهوال الشدائد كلها   حتى طغت فلقيت ما لم أعهد
نارَ الجحيم إلى غير ذميمة   وخذى إليك مصارعى فى مرقدى

وفى قطعة أخرى يسميها « الحان والمسجد » يقارن بين صورتها القديمة الطاهرة وصورتها الجديدة الجسدية مزدرياً الجسد المستباح ازدراء شديداً . ونراه يصور ميلاد حب هند العفيف وموته المباغت فى مقطوعتين تصويراً

بديعاً ، ومن قوله فى موته :

وُلد الحب لنا ، وافرحاه وقضَى فى مهده وا أسفاه
مات لم يدرج ولم يلعب ولم يشهد الدنيا ولم يعرف أباه

وواضح مما تمثلنا له من أشعار أنه كما حرر الشعر من مضمونه القديم حرره من صياغته التقليدية التى تعنى بالطلاوة اللفظية وضروب التوشية والتزويق والتشبيهات المحسوسة .

ولم تعد القصيدة عنده خواطر متناثرة ، لا يجمعها سوى رباط الوزن والقافية ، كما كان الشأن فى القديم وعند شعراء مدرسة الإحياء والبعث ، فقد سادت أبياتها رابطة معنوية توثق الصلة بين أبياتها ، وتضمها فى موضوع واحد متداخلة مترابطة ، يأخذ بعضها برقاب بعض ، وكأنها أعضاء لجسد واحد أو قل لبنية حية تامة الخلق والتكوين . وقد لا يتضح هذا التلاصق فى بعض القصائد ، ولكنها على كل حال يراد لها أن تجرى فى هذا النسق الذى يلغى وحدة البيت ، ويضع مكانها وحدة القصيدة ، بحيث تنمحى بين معانى الأبيات الخنادق والممرات والطفرات والوثبات .

٢

وحى الأربعين ــ هدية الكروان

نشر العقاد هذين الديوانين فى سنة ١٩٣٣ وقد وضع بين يدى أولهما مقدمة نقدية طريفة تحدث فيها عن طائفة من معايير مدرسته فى الشعر

العصرى المنشود وفرّق ما بينه وبين الشعر التقليدى فى نفس موضوعاته : وبدأ بالمديح الذى كان يصب عليه المجددون كثيراً من سخطهم لما يجرى فيه من ملق ورياء ، فلاحظ أن منه ما يدخل فى الشعر العصرى ؛ وهو المدح الذى يعبر عن عاطفة صادقة لا عن معان لا علاقة لها بعاطفة الشاعر ولا بشعوره ، يقول : « إنما يخرج المدح من الشعر لأنه كلام يضطر الناظم إليه اضطراراً ولا يعبر فيه عن عاطفة صادقة أو عاطفة صحيحة ، ولولا الحاجة إلى نوال الممدوح لما نظمه ولا أجاله فى خاطره ، فمن هنا كان المدح كلاماً لا شعر فيه ولا دلالة على شعور . أما المادح الذى يقول ما يعتقد أو يحس أو يتمثل أو يتخيل فلا فرق بينه وبين شاعر الوصف والغزل والحماسة من حيث القدرة الشاعرة ، ولا سيما إذا هو أثنى بما يوجب الثناء فى رأيه وضميره » . فالمدح وغيره من موضوعات الشعر التقليدية كالرثاء والهجاء لا تنفى من الشعر العصرى بعناوينها ، وإنما تنفى بأغراضها ومضامينها وعلاقاتها بالمشاعر الصادقة لأصحابها . وبالمثل وقف عند وصف الصحراء والإبل ، فقال إنه ينفى من الشعر العصرى حين يكون تقليداً ، أما حين يصدر عن شخص « يعيش فى الصحراء أو على مقربة منها ويركب الإبل وتجيش نفسه بالشعر والتخيل عند ركوبها ورؤيتها فليس بشاعر إن لم ينظم فى هذا المعنى مخافة الاتهام بالتقليد أو جرياً على رأى الآخرين ، إذ هذا هو التقليد بعينه فى التصور واختيار الموضوعات ، وما المقلد إلا من ينسى شعوره ويأخذ برأى الآخرين على غير بصيرة أو بغير نظر إلى دليل » . ويقول إن الشعر هو التعبير

الجميل عن الشعور الصادق ، ومتى وجد هذا الشعور وُجد الشعر . ويلتفت إلى من يحصرون أبواب الشعر كالغزل فى أنماط بعينها قائلا إن هذا من ضيق الوعى وركود النفس ؛ لأنه يفضى إلى تحجر هذه الأبواب . ويخرج بالشعر عن تصوير الحالات النفسية للشاعر تصويراً حرا . وهو تصوير من حقه أن يصله بإحساسه الشامل لمظاهر الجمال وأسرار الحياة و بما يجرى فى نفسه من معانى الخير والشر والتفاؤل والتشاؤم ، ومن أجل ذلك كانت الأحاسيس والخواطر النفسية فى كل باب من أبواب الشعر لا تنحصر ؛ لسعة هذه الخواطر والأحاسيس وما يفد فيها من غرائب لا تحد ، وهى سعة تجعل عالم الشعر « لا ينحصر فى قالب ولا يتقيد بمثال » .

وديوانه « وحى الأربعين » فى مجموعه مقطوعات قصيرة ، وكأنه خواطر عاجلة قيدها العقاد فى أثناء مشاغله السياسية والوطنية التى أخذت تعوقه عن الفراغ للشعر ، ومن أجل ذلك تتفوق الأجزاء القديمة لديوانه على هذا الديوان ، من حيث اتساع التأملات ، وشمول الإحساس وعمقه وتغلغله فى النظرة إلى الحياة والكون ، وقد تلقانا مقطوعات جيدة كقوله فى القبلة :

هى كأس من كئوس الخالدين لم يشبها المزج من ماء وطينْ
كلما أفرغتها منتشيا ملئت من كوثر الخلد المعين
وإذا أمتعك الرى بها بدأ الشوق إليها والحنين

قد شربناها معاً في ليلنا فروينا وافترقنا ظامئين

وله مقطوعة بديعة صور فيها حياته بين الصباح والمساء استهلها بقوله : « عم صباحاً عم مساء » وهو يصف فيها دنياه متغنيا بأن كل ما فيها إرهاق . بل باطل وقبض الريح . وخير غزلياته في الديوان قصيدته « غزل فلسفي » . وفيها يصل بين جمال صاحبته والوجود وكأنما قبست من كل مظاهره ومن كل حاضره وماضيه . ويحيي عيد الاستقلال السوري بقصيدة طويلة يصور فيها الوشائج الوثيقة بين الأمتين المصرية والسورية : وشائج الوطن الواحد والتاريخ الواحد واللغة الواحدة ، يقول :

إنا بنو وطن تقرب بينه سيناء في قدسية وجلال
الشمس تجمع في المطالع بيننا والأرض في حرم الجوار الغالي
ومعالم التاريخ في كتب وفي عقب وفي نصب وفي أطلال
ولسان صدق في اللغات تألفت فيه القلوب تألف الأقوال

ويبكي حافظاً حين توفي مصوراً بلاءه في الجهاد الوطني ومعزياً مصر والعرب فيه . ويختم الديوان بقصيدته التي ألقاها أمام ضريح سعد زغلول يوم خروجه من السجن ، وفيها يصور صلابة نفسه بعد هذه المحنة وأنها زادته جلداً وقوة وأيداً كما زادت إرادته حزماً وصرامة ورأيه حياة ونوراً ومحبته للحرية شغفاً وكلفاً ، يقول :

وأعظمْ بها حريةً زيد قدرها لدنْ فقدت أو قيل في السجن تفقد
وما أقعدتْ لي ظلمة السجن عزمة فما كل ليل حين يغشاك مرقد

وما غيبتني ظلمة السجن عن سنى   من الرأى يتلو فرْقداً منه فرقد

ونتقل معه إلى ديوانه « هدية الكروان » الذى نظم فيه طائفة من القصائد فى هذا الطائر الشادى ليلا بأغانيه وترنيماته الشجية . وولعه بعالم الطير قديم كما أسلفنا فى حديثنا عن ديوانه ذى الأجزاء الأربعة ؛ وصور هذا الولع فى مقدمته لهدية الكروان قائلا : « إذا لم يشعر الشاعر بتغريد الطير على اختلافه فماذا عساه يشعر ؟ إن الطير المغرد هو الشعر كله ، لأنه هو الطلاقة والربيع والطرب والعلو والتعبير والموسيقية ، فمن لم يأنس به لم يأنس بما فى هذه الدنيا من طبيعة شاعرة ولم يختلج له ضمير بما فى الحياة من فرح وجيشان وتعبير » . وقد جعل فاتحة الديوان قصيدته القديمة فى الكروان :

هل يسمعون سوى صدى الكروان   صوتاً يرفرف فى الهزيع الثانى

وكأنما اتخذ منها أساساً للنغم الذى انصب من نفسه فى ديوانه الجديد ، وهو نغم يتفاوت رقة وقوة وهبوطاً وصعوداً ، ويتجلى فيه امتزاجه بروح الكروان والوجود على شاكلة قوله يخاطبه :

أنا لا أراك وطالما طرق النهى   وحى ولم تظفر به عينان
أنا فى جناحك حيث غاب مع الدجى   وإن استقر على الثرى جثمانى
أنا فى لسانك حيث أطلقه الهوى   مرحاً وإن غلب السرور لسانى
أنا فى ضميرك حيث باح فما أرى   سرا يغيبه ضمير زمانى

أنا منك فى القلب الصغير مساجل خفق الربيع بذلك الخفقان
أنا منك فى العين التى تهب الكرى وتضن بالصحوات والأشجان

وتعود إلى العقاد فى هذا الديوان شاعريته التى رأيناها فى ديوانه الأول وما يتصل بها من الإحساس بالحياة وعمق أغوارها والنظرة الشاملة إلى الكون والوجود ، ويتغنى بالطبيعة والحب مصوراً أشواق الهوى ونبض قلبه مع نبضات الطبيعة وخفقات أحاسيسه . ومن طريف تغنيه قصيدته « الثوب الأزرق » وفيها تخيل أن زرقة هذا الثوب مقتبسة من لون الطبيعة التى شغف بها الإنسان فى البحر والسماء ورأى فى طلعة صاحبته ونضرة خديها وسحر عينيها ما يجلو له الأنجم فى السماء والزبد الوضاء فى الماء ، وسرعان ما رجع إلى نفسه المفتونة بالجمال الماجع فى الطبيعة قائلا إنه إن فاته تقبيل هذا الجمال فى الماء أو فى القبة الزرقاء فإنه واجده فى ثغر صاحبة الثوب الأزرق الفاتنة التى تجمع مع ردائها جمال الكون كله ، يقول :

الأزرق الساحر بالصفاء تجربة فى البحر والسماء
جربها مفصل الأشياء لتلبسيه بعدُ فى الأزياء
مجود الإتقان والرواء ما ازدان بالأنجم والضياء
ولا بمحض الزبد الوضاء زينته بالطلعة الغراء
ونضرة الخدين والسيماء ولمعة العينين فى استحياء
إن فاتنى تقبيله فى الماء وفى جمال القبة الزرقاء
فلى من الأزرق ذى البهاء يخطر فيه زينة الأحياء

مقبل مبتسم الأضواء مردد الأنغام والأصداء
وقبلة منه على رضاء غنى عن الأجواء والأرجاء
وعن شآبيب من الدأماء وعنك يا دنيا بلا استثناء

وهذا الشعور بأن الكون وما فيه من جمال تجربة للصانع المبدع موزعة بين عناصره المختلفة يقترن بها إحساس نفسى دقيق بحقائق كل ما فيه . وهو إحساس يرتبط بالخيال أو قل بالرؤيا الشعرية ، فإذا الحقائق تتشكل فى أشكال مختلفة وتتحول من عيان إلى عيان ، ومن خير ما يصور ذلك عنده وصفه للحظة نعيم الحب فى قصيدته « كلماتى » فقد استطالت فى نفسه بخواطره وخياله وشعوره وذكرياته ؛ فإذا هى تتحول من لمحة خاطفة إلى أبد حافل بالصور والمشاعر والخوالج والمعانى إلى غير نهاية يحدها الحس والعيان ؛ يقول مصوراً تلك اللحظة :

لحظة تمنح قلبى كل هاتيك الهبات
لحظة ترفع عمرى حقباً متصلات
رب عمر طال بالرقعة لا بالسنوات
لحظة ؟ لا بل خلود لاح بين اللحظات
كالسموات تراها من شباك الحلقات
رب آباد تجلت من كوى مختلفات
وقطيرات زمان ملأت كأس حياة

ويعود إليه فى هذا الديوان زبد الفكاهة الذى كان يعلو أمواج الديوان

الأول على نحو ما يلقانا فى قصيدتيه « أسود يلتحى » و « البيلا » . ويرثى أحد رفاق صباه بقصيدة مؤثرة . ومن طريف قوله فى نصيب الحى والميت :

يا صديقى لنا البكاء　　ولك الموت والسلام
عندنا النور والعناء　　عندك النوم والظلام
ليس يأسى أخو فناء　　بل أخ بعده أقام

وفى جوانب كثيرة من هذا الديوان يتجلى غنى الإدراك العقلى وأن الشعر ليس ومضات حسية فحسب ، بل هو أيضاً ومضات عقلية .

٣

عابر سبيل

نشر العقاد هذا الديوان فى سنة ١٩٣٧ وقد نهض فيه بتجارب شعرية لم يسبق له ولا لغيره من معاصريه تناولها ولا أداؤها ، إنما سبق إليها بعض الشعراء الغربيين فى هذا القرن ، ذلك أنهم انصرفوا عن شعر الطبيعة والحب واستيحاء الميثولوجيا اليونانية والرومانية إلى ما أثرت به المخترعات الكثيرة فى حياة الناس ، ومضوا يصورون كل ما يتصل بهذه الحياة ، متخذين منه مادة جديدة لأشعارهم ، مهما بدا شأنه ضئيلا . فكل ما فى الحياة الحاضرة يصلح للشعر ولكى يمد الشاعر من حوله نطاق نفسه

وخياله وتأملاته العقلية وسبحاته الحالمة .

وتمثل العقاد هذا الاتجاه، تُسعفه فيه قوة شاعريته ، وسرعان ما صاغ طائفة من القصائد ، خلع فيها شعوره وخياله على جوانب ومواقف وشخوص من حياتنا اليومية ، فإذا هو ينفض عنها عقالها الحسي الظاهر ويحيطها بهالات من خواطره وأخيلته وسوانحه النفسية . وهو فيها عابر سبيل حقا ، ولكنه شاعر ينفخ من روحه فيما يقع تحت بصره ، فإذا هو يصعد . بل يحلق بأجنحة الفن فى نفس الأفق الذى تحلق فيه قصائد الحب والطبيعة . وبذلك اتسعت مادة الشعر : إذ استوعبت الحياة بكل ما فيها ولم يعد هناك جانب تنعزل عنه ، حتى ما يجرى فى الشوارع والأسواق ، فكل ذلك مهيأ لأن يتكون منه نسيج شعرى أو قل نسيج نفسى عقلى منغم موزون . وقد شرح العقاد هذا المعنى فى مقدمته للديوان ؛ إذ يقول : « ليست الرياض وحدها ولا البحار ولا الكواكب هى موضوعات الشعر الصالحة لتنبيه القريحة واستجاشة الخيال ، وإنما النفس التى لا تستخرج الشعر إلا من هذه الموضوعات كالجسم الذى لا يستخرج الغذاء إلا من الطعام المتخير المستحضر أو كالمعدم الذى يظن أن المترفين لا يأكلون إلا العسل والرحيق . كل ما نخلع عليه من إحساسنا ونفيض عليه من خيالنا ونتخلله بوعينا ونبث فيه هواجسنا وأحلامنا ومخاوفنا هو شعر وموضوع للشعر لأنه حياة وموضوع للحياة . وإن التصور لهو خير معوان للإحساس وشاحذ للرغبة أو للنفور ، فإن الأم تنظر إلى طفلها الوليد ثم تقضى عشرين سنة وهى تتصوره عريساً سعيداً لا تفرح به يوم عرسه كما تفرح بتصوره

والرجاء فى بقائه طوال تلك السنين . فإنما من نسج التصور تخلق الحلل النفيسة التى نضفيها على آمال الغيب ومشاهد العيان . فلنجمع لدينا الرغبة والتصور نجمع لدينا زاداً من الشعر لا ينفد وموضوعات للشعر تشتمل على كل ما تراه العيون وتمسه الأذواق ، ولنتوجه بالحواس الراغبة إلى ما نشاء نستمرئ الشعور به والتعبير عنه كما نستمرئ المحاسن المشهورة والمناظر المأثورة » .

وقد مضى العقاد يلتقط من مرئيات الحياة ومشاهدها موضوعات لشعره ، فالشعر منبث فى كل شىء ، فى البيت الذى يسكنه وفى الطريق الذى يعبره وفى الحوانيت ومعروضاتها وفى الفنادق ووجوهها وفى نداء الباعة وفى القطار العابر وفى رجل الشرطة ، فكل ذلك يحيطه العقاد بخواطره النفسية والخيالية والعقلية ، فإذا هو يستحيل صوراً نفسية أو قل صوراً شعرية بديعة على شاكلة قصيدته فى « كواء الثياب ليلة الأحد » وهى تتعاقب على هذا النمط :

لا تنم ، لا تنمْ   إنهم ساهرون
سهروا فى الظلمْ   أو غفوا يحلمون
أنت فيهم حكم   وهم ينظرون
فى غد يلبسون   فى غد يمرحون

* * *

كم إهاب صقيل   ياله من إهاب
وقوام نبيل   فى انتظار الثياب

وحبيب جميل يزدهى بالشباب
كلهم يحلمون فى غد يلبسون

° ° °

أسلموك الحلل كالربيع الجديد
فى احمرار الخجل أو صفاء النهود
تشتهى بالقبل لا بمس الحديد
يا لها من فنون بهجة للعيون

° ° °

طويت كالعجين فاطو فيها الجمال
لمسة باليمين عطفة بالشمال
والعجين الثمين فى استواء المثال
فيه ماست غصون من جناها الجنون

° ° °

زدْ نصيب الحبيب من هوى وابتسام
بالكساء القشيب رف حول القوام
لك فيهم نصيب غير كىّ الغرام
عند برْح الشجون هم همُ المكتوون

ويمتد نفَس العقاد إلى أبيات أخرى ، وكأنما الخواطر تفد عليه من كل صوب ، فقد تحول الكواء وناره والثياب التى يكويها إلى موضوع نفسى كبير فيه الناس ومشاعرهم وآمالهم فيما يلبسون يوم الأحد وما يطوف

بخيال شبابهم من الحب . وبذلك صعد به العقاد إلى معارج الشعر والفن . وكأنما كانت بيننا وبين هذا المشهد الحسي الذى نبصره فى غدونا ورواحنا فواصل وما كادت باصرة العقاد تلمسه حتى تبين أن هذه الفواصل أقواس وهمية وأنه يحمل من رؤى الشعر ما يخلب الألباب . وهو يخرج من هذه التجارب الشعرية الجديدة إلى نشيده القومى . وقد اضطرم فى قلبه حب وطنه وإيمانه بماضيه العريق الخالد وغده المرجّى المأمول ، ويستهله بقوله :

قد رفعنا العلم للعـــلا والفدا
فى ضمان السماء
حىّ أرض الهرم حىّ مهد الهوى
حىّ أم البقاء
كم بنت للبنين مصر أم البناه
من عريق الجدود
أمـــة الخالدين من يهبها الحياه
وهبته الخلود

وله فى هذا الديوان أشعار قومية كثيرة نظمها فى مناسبات مختلفة كعيد يوم الجهاد وعيد بنك مصر ومشروع القرش وهو فيها كثيراً ما يجمع بين الحاضر والأمجاد الماضية مستثيراً الحمية فى نفوس الشباب حتى يحطموا قيود الاحتلال وأغلال البغى والظلم والعدوان ، وإنه ليؤكد ذلك فى ضمائرهم بما يصور لهم من روح وطنهم القوى وصموده على مدى الدهر للكوارث والخطوب دون أن يذل أو يلين ، بل إنها

سرعان ما تنحسر عنه وترد إليه قواه كاملة غير منقوصة ؛ وكأنما يستعيد تاريخه فى عصر رمسيس دائماً بجحافله وجنوده ، يقول :

كنانة الله كم أوفت على خطر ثم استقرت وزال الخوف والخطر
وكم توالت على أبوابها أمم ومصر باقية والشمس والقمر
كأن رمسيس حى فى مدينته يرعى بنيه وهم من حوله زمر

ومن أروع قصائد هذا الديوان قصيدته التى ألقاها فى دار العمال عند افتتاحها فى صيف سنة ١٩٣٥ وهى صرخة اشتراكية قوية فى وجه الإقطاعيين والمستغلين ، بل هى ثورة عنيفة دعا فيها العمال إلى الاتحاد والجهاد لنيل حقوقهم المسلوبة . وقد مضى يصرخ فى مواطنيه إنه لظلم مجحف أشد ما يكون الإجحاف أن يتجرع العمال غصص الفقر والحفاء والجوع والعرى والمذلة بينما يتنعم الأغنياء والرأسماليون ويستمتعون بكل أدوات الترف على حسابهم وكدحهم وامتصاص دمائهم . ويتعمق فى أسباب المشكلة ويردها إلى الاحتلال اللعين الذى سخر الأمة لطبقة لا ترعى فيها عهدا ولا ذمة ولا حرمة ، يقول : متوجهاً بخطابه إلى العمال :

أيها العاملون لبيكم اليو م ولبيكم غداً فى المجال
نعم جيش السلام أنتم إذا ما جرد البغى جيشه لاغتيال
لكم العدة التى ما استطاعت أمة قط تركها فى نزال
ولكم أذرع شداد وأيد من حديد وأظهر من جبال
ولكم فى اتحادكم رأس مال إن فقدتم ذخائر الأموال

ولكم صيحة يهاب صداها　　سادة فى نفوسهم كالموالى

وواضح أنه يدعوهم للثورة على من يسترقونهم ويستغلونهم ويحملونهم من ألوان البؤس ما يطاق ومالا يطاق ؛ وأخذ يصور هذه الألوان وما يقترن بها من الظلم والهوان صائحاً :

لا يكنْ من بنى الكنانة باغ　　يملأ الناس دوره وهو خال
ويكيل النضار وهو دماء　　جُمعتْ من مصارع الآجال
كيف ترعى عناية الله أرضا　　باء فيها المجدّ بالإقلال
ينسج الخز والحرير ويمشى　　حافياً فى الرقاع والأسمال
ويشيد القصور وهو شريد　　فى زوايا الكهوف والأطلال
ويدرّ الغنى وما فى يديه　　شبعة الوالدين والأطفال
يهب المترفين عمر فراغ　　وهو باكى الأيام باكى الليالى
ذاك ظلم نعيذ بالله مصرا　　من أذاه فى مقبل الأجيال

وتتجلى فى هذا الديوان كما تتجلى فى دواوينه الأخرى نزعته القوية إلى الخير ، وهى جزء من إحساسه القوى بأن الجمال الفنى يرتكز على الخير والكمال الإنسانى . وبه أيضاً أسراب من شعر الحب والطبيعة والرثاء .

٤

أعاصير مغرب وما بعد الأعاصير

نشر العقاد فى سنة ١٩٤٢ ديوانه « أعاصير مغرب» وكان قد نيف على الخمسين من عمره ؛ ونراه يعرض فى مقدمته بواعث الحب المتأخر بعد تجاوز مراحل الشباب والرجولة والكهولة ، وينفى أن يكون لشعر الحب حد زمنى فى حياة الإنسان لا يتجاوزه مستلهماً فى هذا الحكم توماس هاردى القصاص الإنجليزى الذى تحول بعد سن السبعين من عالم القصة إلى عالم الشعر ناظماً فيه آيات رائعة . وقد مضى يؤكد أن عواطف الإنسان خالدة فيه ، وأن الشيخوخة ربما أعانت على النظم فى الغزل بأكثر مما يعين الشباب ، إذ تهدأ فيها ثورة العواطف المستعرة التى تبلبل النفوس ، وأيضاً فإنها تعمق تجربة الشاعر وتعمق فهمه للحياة الإنسانية وما يدور فى قلب المحب من مشاعر . وإذا فاتته حرارة الغزل المستمدة من حرارة الشباب فإنه لن يفوته استكناه أسرار الحب والنفوذ إلى لبابه وجوهره ، وإذا فاتته قوة الأسلوب فلن يفوته صفاؤه . ويقول إنه يسمى ديوانه «أعاصير مغرب» لأنه نظمه والعالم تعصف به عواصف الحرب بينما تعصف بنفسه عواصف مختلفة من حب وغير حب .

ويحدثنا عن العالم ومحنته بالحرب فى صحف معدودة يتلوها بصحف كثيرة فى الحب ، وهى صحف تطبع بطابع الفكر أكثر مما تطبع بطابع الوجدان ،

وهذا طبيعى لأن الإنسان عادة لا يستطيع أن يفلت من سيل الشيخوخة الذى يخمد فيه لحب العاطفة : وتوماس هاردى الذى استشهد به العقاد إنما هو مثال شاذ يخرج على سنن الطبيعة الإنسانية ؛ وكأن العقاد أدخلُ فى هذه الطبيعة منه حين نحس فى غزله غير قليل من الجفاف العقلى ، فقد خطا إلى عالم الأفكار البحتة . وليس معنى ذلك أن توهج غزله القديم قد انطفأ دفعة واحدة : فقد ظلت منه بقايا ؛ على نحو ما يلقانا فى قصيدته « الصدار الذى نسجته » وهى من روائع غزله ؛ يقول :

هنا مكان صدارك هنا هنا فى جوارك

* * *

هنا هنا عند قلبى يكاد يلمس حبى
وفيه منك دليـــل على المـــودة حسبى

* * *

ألم أنل منك فكره فى كل شكة إبره
وكل عقدة خيــط وكل جرّة بكره

* * *

هنا مكان صدارك هنا هنا فى جوارك
والقلب فيه أسير مطــوق بحصارك

* * *

هذا الصدار رقيب على الفؤاد قريب
سليه هل مر منه إلىّ طيف غريب

* * *

نسجته ببديك على هدى ناظريك
إذا احتوانى فإنى ما زلت فى إصبعيك

وله فى هذا الديوان مديح ومراث لمن ظلموا الشعب تدل على بلبلته وأن راية الجهاد الوطنى التى حملها قديماً سقطت حينئذ من يده فهوى من سمائه وتكسرت أجنحته بعض التكسر . ونراه يئن أنيناً حين توفيت مى زيادة ، وفيها يقول :

الحديث الحلو واللحن الشجى والجبين الحر والوجه السنى

ويموت كلبه « بيجو » فيتفجع عليه تفجع الصديق على الصديق تفجعاً ينم عن نزعة إنسانية قوية فى طوايا نفسه ، وهى نزعة ملأت قلبه بالعطف والرحمة تلقاء عالمى الطير والحيوان على نحو ما مرّ بنا فى حديثنا عن ديوانه ، وفى بيجو يقول باكياً بدموع غزار :

حزناً على بيجو تفيض الدموع حزناً على بيجو تثور الضلوع
حزناً عليه جهد ما أستطيع وإن حزناً بعد ذاك الولوع
والله ــ يا بيجو ــ لحزن وجيع

ونمضى معه إلى سنة ١٩٥٠ فينشر ديوانه « بعد الأعاصير » متحدثاً فى مقدمته عما تعرض له من شوائب النقد الزائف وأهوائه وقد وقف طويلا يرد على من يعيبون شعره بشيوع صبغة التفكير فيه متخذاً من أغانى شكسبير وقصة فاوست لجيتى ورباعيات الخيام وحكم المتنبى أدلة ناصعة على امتزاج الشعور بالتفكير فى آثار الشعراء النابهين . ويطرد القاعدة ،

فلا بد فى كل شعر بل فى كل فن من تعانق الإحساس والفكر ، ويجعلهما مزيةً عامة للإنسان ، فبمقدار حظه منهما يكون حظه من الإنسانية . وكأنه لا يريد أن يعترف بما حدث من تطور فى شعره بحكم الزمن ، وهو ينقل المسألة من صبغة التفكير المجرد إلى التفكير عامة . وحقاً إنه لا بد فى كل فن وكل شعر من تفكير يعزف به الفنان والشاعر على أوتار العاطفة مستخرجاً منها أنغامها التى لا تحد ، فهو عنصر أساسى لا يخلو منه شعر ولا فن . غير أن هذا ليس هو العيب الذى أخذ النقاد يلاحظونه على العقاد منذ كهولته ، فقد أخذت الحرارة العاطفية التى كانت تتوهج فى شعر الديوان الأول تنحسر عن شعر الكهولة والشيخوخة إلا قليلا ، بل لقد أفضى فى جوانب منه إلى تفكير مجرد شديد التجريد ، وكان حريا به أن يترك موضوع الحب ، لأنه مع قيام التفكير فيه الذى لا يخلو منه شعر يحتاج إلى العاطفة الحارة المندلعة كاللهب . ومعنى ذلك أن شعره — بحكم تقدم السن — لم يعد يحتفظ فى جمهوره بخصائصه الشعورية التى رافقته فى ديوانه الأول ، وأنه كلما خطا مع الزمن ضعفت عنده المادة العاطفية المتموجة وقويت مادة التأمل المجرد ، وشعره بذلك يرتبط ارتباطاً وثيقاً بحياته ومراحلها المختلفة . وليس من شك فى أن خير شعره فى هذا الديوان : « بعد الأعاصير » ما تناول به الحياة والخلود وخلائق الناس وعظات الدنيا كقوله عن الذرة :

دعوا الذرة تطغى فى ... زمان يعبد الذره
صغيرٌ كل ما فى الأر ... ض من جاه ومن شهره

ومن خير ومن شر ومن رأى ومن فكره
فلو قيسوا بلا جسم لما ضاقت بهم إبره

ومن قصائده الطريفة فى هذا الديوان قصائده فى تكريم خليل مطران وفى أبطال الفالوجة وذكرى سيد درويش ؛ وله قصيدة بديعة يحيي بها أم كلثوم وصوتها الرائع وفيه يقول :

فيه سر من جنة الـ خلد لكنه ضياء
فيه حرز من الهمو م وعونٌ على القضاء

ويقضم الموت رفيق حياته : إبراهيم عبد القادر المازنى ويهد الحزن كيانه ، ويبكيه بقصيدة مؤثرة تفيض بالشجى والشجن والألم من مثل قوله :

إذا عين غفت فاعجب لأخرى من العينين عالقة بسهد
صحبنا العمر عاماً بعد عام على الحالين من ضنك ورَغد
نمينا شعرنا صنوين حينا فكيف رثاؤه بالشعر وحدى

ويختار العقاد بأخرة من حياته باقة كبيرة من أشعاره فى دواوينه السالفة وينشرها باسم «ديوان من دواوين» وقد ضم إليها أزهاراً من أشعاره التى نظمها بعد صدور ديوانه « بعد الأعاصير » . وأفوحها شذى وعطراً قصيدته « عيد النيروز » التى حيى فيها ثورتنا المجيدة وموكب انتصارها العظيم على الطغاة الآثمين ، وارتسمت فى نفسه عيداً بل عيد ربيع ، ما زال يتحرك فى ضمير مصر على مر التاريخ ، حتى بزغت أضواؤه

مع فيضان النيل فى كل مكان ، وإنه لعيد مجدد على الزمان . ومر بنا فى الفصل الأول استهلال هذه القصيدة . وقد مضى بعده يصب غضبه على أعداء الشعب مهللا للنور الجديد الذى دحر الظلام فى أرضنا دحراً ، يقول :

يا مصر يا بنت الخلود ... يا معقل المجد التليد
أين الذين جزوك جـا ... زية الخيانة والكنود
من كل مسخ هازل ... فى زى جبار عنيد
ولى وولى صحبه ... لا غائبين ولا شهود
من كل مغلوب على ... كمد ومنبوذ شريد

* * *

يا صحبة التوفيق وفـ ... ـقتم إلى النهج السديد
حييتم النيل المبا ... رك واحتفيتم بالصعيد
عيدٌ له فى ذمة الـ ... ـتاريخ توفيق حميد
عيد الأوائل والأوا ... خر والخمائل والورود
فى كل عام تحتفو ... ن بمولد اليوم الجديد
لا راغم فيه يسا ... د وكل من فيه يسود

ولعل فى كل ما قدمنا ما يوضح مكانة العقاد فى شعرنا الحديث ، فقد تزعم أول مدرسة جددته تجديدا واضحاً مستقيما وهو تجديد فُتحت فيه نوافذ شعرنا على الآداب العالمية ، وزالت عنه غشاوات التقليد ،

واندفع لتمثل الروح المصرى العربى الأصيل متغنياً ببواطن السرائر إزاء الإنسان والكون متأملاً فى الحياة والوجود ، نافضا عنه الصورة التقليدية الحسية القديمة ، مفضياً إلى صورة معنوية جديدة تموج بالمشاعر الوجدانية والتأملات العقلية . ولم تعد الوحدة فيه البيت ، بل أصبحت الوحدة القصيدة بنظامها المتساوق الذى تتواصل فيه الأبيات وتتداخل كما تتداخل الخيوط فى النسيج ، بل تتخلق كما تتخلق الأعضاء فى الكائن الحى .